الفصل الثامن

معركة بريطانيا

obeikandl.com

ذكرنا سابقًا أن مصيرنا أصبح مرتبطًا بإحرازنا النصر الجوي، وأن القادة الألمان قد أدركوا أن نجاح عملية غزوهم لبريطانيا يتوقف على السيطرة الجوية في سماء القتال، وفي بعض الأماكن على الساحل الجنوبي لبلادنا، على أنه لم يكن في مقدور الألمان القيام باستكمال استعداداتهم في مرافي الأبحار، وحشد سفن النقل، وتطهير المعابر من الألغام ثم القيام ببث ألغام أخرى دون أن تكون لديهم الوقاية من غارات السلاح الجوي البريطاني. أي أن الأمر الفصل كان للسيادة الجوية في سماء مناطق العبور والإنزال ومن أجل هذا كان لابد من تدمير السلاح الجوي الملكي وسائر المطارات الممتدة على طول الطريق بين لندن والبحر، ونحن نعلم الآن من الوثائق التي حصلنا عليها أن هتلر أبلغ الأميرال رايدر في ٣١ تموز: «أنه إذا لم يتمكن سلاحنا الجوي من القيام بعملية تدمير المطارات العدوة بالإضافة إلى موانئه وقواته البحرية خلال مدة ثمانية أيام، فإن عملية الغزو ستتأجل بالضرورة حتى أيار من العام المقبل». وهذه المعركة التي كان علينا أن نخوض غمارها، على أني لم أحس بخوف لحظة واحدة - ولو عن طريق التصور - من التجربة العظمى التي كنا نواجهها، وكنت في الرابع من حزيران قد أدليت للبرلمان ببيان هذا نصه:

«إن الجيش الفرنسي العظيم قد اضطر إلى التراجع، واضطربت كل أموره نتيجة الهجوم الذي قامت به بضعة ألوف من السيارات المدرعة فهلا يدافع عن قضية الحضارة بضعة ألوف من الطيارين بمهارتهم وإخلاصهم!! وأرسلت إلى سمطس في ٩ حزيران الثاني أقول: وأني أرى الآن بوضوح أن هتلر بشكل قاطع سيشن هجومًا على هذه البلاد، فيدمر سلاحه الجوي في هذا الهجوم».

والآن جاءت الظروف مواتية ...

ولاشك أن كتبًا كثيرة قد صدرت لتوضح مدى الصراع الجوي بين السلاحين البريطاني والألماني، وهو الصراع الذي يكون معركة بريطانيا، وقد استطعنا الآن التعرف إلى آراء القيادة الألمانية العليا، وإلى ردود الفعل لديها في المراحل المتباينة، ويظهر أن خسائر الألمان في بعض المعارك الرئيسية، كانت أقل بكثير مما خيل إلينا، وأن تقارير الجانبين في وقتها كانت تتسم بكثير من المغالاة، ولكن لم يكن هناك خلاف على الخطوط الرئيسية

لذلك الصراع المعروف الذي كانت تتوقف عليه حياة بريطانيا وحرية العالم قاطبة .

كان السلاح الجوي الألماني قد التحم في معركة فرنسا بكل ما لديه من قوة أضحى في حاجة إلى الراحة بعد هذا القتال ، تمامًا كما حدث للأسطول الألماني بعد معركة النرويج ، كذلك كان الأمر بالنسبة لنا إذ أن ثلاثة أسراب من مجموع كل أربعة من أسراب طائراتنا المحاربة كانت قد أسهمت في وقت أو آخر في معارك القارة ، ولم يكن في مقدور هتلر إلا أن يعتقد أن بريطانيا سترحب بعرض للصلح ، بعد انهيار فرنسا .

وكان هتلر يشبه في ذلك المارشال بيتان وفيجان وغيرهما من القادة الفرنسيين العسكريين والسياسيين ، الذين لم يدركوا ما لدى دولة تقوم في جزيرة من موارد مستقلة وما حبتها الطبيعة به من شمم . لقد كان من شأنه شأن هؤلاء الفرنسيين الذين استهانوا بعزيمتنا وإرادتنا ، وقضى هتلر شهر حزيران في تحوير الأوضاع لتتمشى مع الأحوال التي وجد نفسه فيها تدريجيًا ، وفي خلال ذلك كان الطيران الألماني يقضي فترة من النقاهة وإعادة التنظيم استعدادًا للمهمة الجديدة ، ولم يكن ثمة شك في خطر هذه المهمة ، إذ كان على هتلر أن يختار واحدة من اثنتين ، أما أن يغزو إنكلترا ويحتلها أو يخوض غمار حرب طويلة الأمد ، تنطوي على كثير من الأخطار والمشكلات ، على أن احتمال نصر جوي يقضي على المقاومة البريطانية كان ماثلاً في أذهانهم مما يجعل الغزو الفعلي أمرًا غير محتم إلا باحتلال بلاد مغلوبة على أمرها . واستطاعت القوة الألمانية الجوية خلال شهر حزيران ومطلع شهر تموز أن تنظم نفسها وتبث النشاط والحيوية في صفوفها ، وأن تنتشر في جميع المطارات الفرنسية والبلجيكية التي يحتمل بدء الهجوم منها ، واستطاعت الغارات الاستطلاعية والتجريبية الوقوف على حقيقة المقاومة التي ستجابهها ومدى طاقتها .

وشرعت في ١٠ تموز بشن أولى هجماتها الضخمة الكبيرة التي تعد بحق بدء معركة بريطانيا، وهناك تاريخان مهمان يرتفعان أيضًا في هذه المعركة هما ١٥ آب و١٥ أيلول ، وكانت ثمة مراحل ثلاث متتابعة ومتداخلة في الوقت ذاته حين الغزو الألماني ، وقد اتسعت المرحلة الأولى بين ١٠ تموز و ١٨ آب بالتركيز على القوافل البريطانية في المانش وعلى الموانئ الجنوبية الواقعة بين دوفر وبلايموث حيث تقرر حصر سلاح الطيران البريطاني وإيقاعه في

معركة حاسمة والقضاء عليه، وكذلك تدمير الموانئ التي تقرر النزول فيها . وفي المرحلة الثانية الواقعة بين ٢٤ آب و٢٧ أيلول كان من المحتم تمهيد الطريق إلى لندن وذلك بتحطيم السلاح الجو البريطاني ومنشآته لتأمين الهجمات المتواصلة العنيفة على العاصمة وقطع طرق المواصلات من الشواطئ المهددة بالغزو . أما غورنغ فلا شك أنه كان يرى في هذه الغارات غرضًا أكبر وهدفًا أبعد وهو أحداث الاضطراب الكامل في أكبر مدن العالم وشل حركتها، وإيقاع الفزع الأكبر في بريطانيا حكومة وشعبًا، واضطرارهما أخيرًا إلى الخضوع لإرادة ألمانيا، واتجه أمل الجيش الألماني والأسطول إلى الرغبة في أن يكون غورنغ مصيبًا فيما رآه، ولكن مع مرور الوقت، وتغير الأحوال رأي قادة السلاحين أن السلاح الجوي البريطاني لم يقض عليه، وأن أملهم في عملية «أسد البحر» قد تبدو في سبيل تحقيق ما أراده غورنغ من تدمير لندن، وأخيرًا عندما انتابتهم خيبة أمل في كل شيء، وعندما تأجل الغزو إلى أجل غير معلوم لأن الشرط الحيوي الأساسي وهو السيطرة على الجو لم يتحقق، بدأت المرحلة الثالثة والأخيرة . فقد تبدد حلمهم في النصر الذي بدا كسراب خادع وسلاح الطيران البريطاني ما زال حيًا، مما حدا بغورنغ في شهر تشرين الأول أن يقوم بشن غارات عمياء رعناء على لندن وغيرها من مراكز الإنتاج الصناعي .

ليس هناك وجه للمقارنة بين طائراتنا المقاتلة وطائراتهم، فالطائرات الألمانية أسرع وأقدر على الارتفاع، أما طائراتنا فأقدر على المناورات وأفضل تسليحًا، وكان طيارو ألمانيا على ثقة من تفوقهم العددي، كما كانت الانتصارات التي أحرزوها في بولندا والنرويج والأراضي المنخفضة (هولندا) وفرنسا تشعرهم بالعزة والكبرياء . أما طيارونا فكانوا واثقين بتفوقهم الشخصي، وكانوا يتحلون بتلك العزيمة التي تعتبر من صفات الشعب البريطاني وتبدو في وقت الأزمات والعواصف . وقد كان الألمان متمتعين بمزية إستراتيجية هامة، أحسنوا استغلالها . فقد توزعت قواتهم وانتشرت في جبهة واسعة للغاية، وكان في وسعها أن تشن هجمات علينا بأعداد كبيرة مع اتخاذ كافة الوسائل لتشتيت أفكارنا حتى لا يتسنى لنا أن نعرف مواقعهم الحقيقية، وكان الطيران الألماني قد جمع في شهر آب ٢٦٦٩ طائرة بينها ١٠١٥ قاذفة قنابل، و٣٤٦ طائرة من طائرات الانقضاض . وأصدر الفوهرر في ٥ آب أمرًا

يحمل الرقم ١٧ يقضي بتوسيع جبهة الحرب الجوية ضد بريطانيا ، ولم يكن غورنغ واثقًا من عملية «أسد البحر» ، بل ركز اهتمامه على الحرب الجوية «المطلقة» ولم تكن هذه القيادة تعتبر تحطيم سلاحنا الجوي الهدف الأساسي بل تعتبر تحول الحرب الجوية بعد بلوغها الذروة إلى شن الهجوم الشامل على بوارجنا وسفننا . وقد عبرت هذه القيادة عما تشعر به من أسف لأن غورنغ لا يهتم كثيرًا بتركيز غاراته على الأهداف البحرية ، كما أحنقها التأجيل المتكرر للغارات الجوية . وفي ٦ آب أبلغت القيادة البحرية القيادة العامة بأن بث الألغام في بحر المانش أصبح من المتعذر القيام به نتيجة لضغط التهديد البريطاني المتواصل في الجو . وقد تركز القتال الجوي المتواصل طيلة شهر تموز ومطلع شهر آب على قاعدة «كنت» البحرية وساحل القتال ، وقد تأكد غورنغ ومستشاروه أن غاراتهم قد شغلت كل أسرابنا المقاتلة في ميدان المعركة في الجنوب ، فقرروا القيام بغارة في وضح النهار على مدننا الصناعية الواقعة في الشمال ، وكانت المسافة تعد طويلة على مقاتلاتهم من الطراز الأول وهي (المسرز شميث ١٠٩) فاضطروا إلى المغامرة بطائراتهم القاذفة على أن تصحبها طائرات (المسرز شميث ١١٠) وهذه بصرف النظر عن مقدرتها على الطيران إلى مسافات أبعد ، فهي غير مجهزة بأسلحة القتال ، وهو أمر له أهميته في هذا الوقت، ومع ذلك فقد نجحت المغامرة .

وهكذا قامت في الخامس عشر من آب نحو مائة قاذفة قنابل ، وأربعون طائرة مسرز شميت ١١٠ ، بشن هجوم على مدينة تاينيسان ، وفي الوقت نفسه كانت أكثر من ثمانمائة طائرة تشن هجومًا على قواتنا الجنوبية لحصرها في منطقتها ، إذ خيل لهم أنها متجمعة في هذه المنطقة. لكن التوزيع الذي وضعه داودنج لطائراتنا المقاتلة بدأ يظهر أثره ، فقد كان داودنج يفكر في مثل هذا الخطر فسحب سبعة أسراب من طائرات «الهاريكين» و«السبتفاير» من معركة الجنوب المحتدمة للاستجمام قليلاً ولحماية الشمال في نفس الوقت ، وقد أحس رجال هذه الأسراب ببالغ الأسى لابتعادهم عن ميدان .... مضطرين ، إذ أكدوا لقيادتهم أن القتال لم يجهدهم ولم ينل من نشاطهم. وها هم أولاً يفاجؤون بما لا يخطر على بالهم ، فقد أصبح في مقدورهم أن يلتقوا بالمهاجمين بعد اجتيازهم الساحل واستطاعوا إسقاط أربعين طائرة ألمانية أغلبها من قاذفات القنابل الثقيلة من طراز (هينكل ١١١) التي تنقل الواحدة

منها أربعين رجلاً مدربًا ، ولم يصب طيارونا بأي جراح سوى اثنين . وليس هناك مجال للشك في سعة أفق المارشال داودنج وتفكيره السديد في توجيه الطائرات المحاربة مما يستحق عليه كل ثناء وتقدير ، ولكن عظمة هذا الرجل تتجلى في احتفاظه بهذه القوة من طائراتنا المحاربة في الشمال أثناء الأسابيع الطويلة من اشتعال الحرب في الجنوب. وهذا النوع من القيادة يعد مثلاً على العبقرية في فن الحرب .

وأعقب هذا اليوم الفاصل أن أضحت مدن الشمال في مأمن من الغارات الجوية وبعد يوم ١٥ آب اليوم الذي بلغ فيه الصراع الجوي أشده ، فقد حدثت خمس معارك رئيسية على جبهة مساحتها خمسمائة ميل ، كان حقًا يومًا رائعًا ، فقد التحمت جميع أسرابنا الاثنين والعشرين في موقعة في الجنوب ، وبعضها عاود المعركة مرتين أو ثلاثًا ، وكانت خسائر الألمان في الجنوب والشمال قد بلغت ستًا وسبعين طائرة ، مقابل أربع وثلاثين من جانبنا . ولا شك في أن هذا الرقم يعد كارثة بالنسبة للسلاح الجوي الألماني.

وليس هنا مجال للشك في أن قادة الجو الألمان قد هالتهم هذه الهزيمة الساحقة التي انطوت على أسوأ النذر بالنسبة للمستقبل ، وكان السلاح الألماني قد ركز اهتمامه في الإغارة على ميناء لندن ، ذي الأرصفة الطويلة التي تقف عليها مختلف أنواع البواخر ، وإذلال كبرياء المدينة باعتبارها من أكبر مدن العالم وأوسعها ، على أن تحديد الهدف لا يهم الطيار مما يجعل مهمته أسهل وأيسر .

❖ ❖ ❖

قام اللورد بيفربروك خلال تلك الأسابيع الطويلة من القتال المتواصل والقلق الذي لا نهاية له، بمساعدات واضحة ، فمن الضروري إدخال تجديد على أسرابنا المقاتلة وتزويدها بطائرات مضمونة ، وقد حال ضيق الوقت دون الأخذ والرد والإطالة في البحث والشرح بالرغم من ضرورة ذلك في كل نظام هادىء رتيب . وكانت طباع اللورد بيفربروك مناسبة كل المناسبة للضرورة الملحة ، فلقد كانت حيويته ونشاطه من بواعث الإقبال على العمل ، وقد اغتبطت لذلك كثيرًا فقد اعتمدت عليه ووثقت في مساعدته فلم تخب هذه الثقة مرة

واحدة ، وها قد دنت الساعة لإظهار عبقريته واستعداده الشخصي مع ما يصحبها من قدرة على الإقناع تمكنه من تذليل شتى الصعاب. وكنا نلقي في جحيم المعركة بكل مواردنا ، فقد تدفقت علينا الطائرات الجديدة أو ما تم إصلاحه من أسرابنا التي اغتبطت حينما طالعتها هذه الأعداد الكبيرة غير المتوقعة ، وأخذت ورش الصيانة والإصلاح تضاعف من جهدها وقوة طاقتها . حينئذ تجلت لي قيمة الرجل وأهميته فدعوته في الثاني من شهر آب بعد موافقة الملك إلى الاشتراك في عضوية وزارة الحرب ، وفي الوقت نفسه كان ولده الأكبر ماكس أتيكن قد تصدر قيادة الطائرات المقاتلة وأحرز انتصاره السادس.

وكان أرنست بيفن وزير العمل والخدمة الوطنية من الوزراء الذين حرصت على الإكثار من لقائهم في تلك الفترة الحرجة نظرًا للمهمة الحيوية التي كان يقوم بها من إدارة اليد العاملة في البلاد، وبعث الحيوية والنشاط فيها . وكان جميع العمال في مصانع الذخيرة مستعدين لتلقي توجيهاته ، وانضم هو الآخر إلى عضوية وزارة الحرب في شهر آب . وضحى العمال النقابيون بأرباحهم وحقوقهم التي أحرزوها بعد جهد طويل والتي كانوا يولونها أعظم الرعاية ، ضحوا بها من أجل المصلحة الوطنية وهم يرون بقية الثروات والامتيازات والممتلكات التي يملكها الغير قد ضحوا بها هم الآخرون . وكنت أنا على وفاق تام مع بيفر بروك وبيفن في أسابيع الأزمة التي خضناها ، وقد وقع خلاف بين الرجلين فيما بعد ، وهذا مما يؤسف له فقد نتج عن اختلافهما كثير من الصدام ، أما في تلك المرحلة من الكفاح الذي بلغ ذروته ، فقد كنا جميعًا نعمل يدًا واحدة ، وليس في مقدوري إلا أن أثني كل الثناء على ولاء المستر تشمبرلين وثبات جميع الزملاء وكفايتهم، فإلى الجميع تحياتي .

ولم يدرك غورنغ حتى نهاية شهر آب أي أثر سيئ للصراع الدائر في الجو ، فقد كان على ثقة هو ورجاله من أن المطارات البريطانية وصناعة الطائرات ، وقوة سلاح الطيران البريطاني المحاربة قد منيت بكوارث ساحقة ، وكانت هناك فترة خلال شهر أيلول تحسن فيها الطقس فازداد أمل السلاح الألماني في إحراز نتائج فاصلة ، وامتحنت المطارات حول لندن بغارة جوية عاتية ، وقامت ثمان وستون طائرة ليلة ٦ أيلول بالإغارة على لندن تبعها في

الليلة التالية هجوم آخر قامت به ثلاثمائة طائرة في وقت واحد، وفي ذلك اليوم كما حدث فيما تلا ذلك من أيام حيث أتممنا تعزيز المدفعية المضادة للطائرات. في ذلك اليوم دارت معارك شديدة ومتواصلة في سماء العاصمة، وكانت القوة الجوية الألمانية توقن بالنتيجة بسبب مغالاتها في تقدير خسائرنا.

وكان ميزان القتال الذي وقع بين ٢٤ آب و ٦ أيلول قد رجح ضد طائراتنا المحاربة، فقد اتخذ الألمان في تلك الأيام الفاصلة بصورة مستمرة قوات ضخمة لتشن غارات على مطاراتنا في جنوب إنكلترا والجنوب الشرقي، وكانوا يهدفون إلى تدمير الجهاز الدفاعي عن العاصمة في أثناء النهار التي استبدت بهم اللهفة لمهاجمتها، وكان العمل المتواصل في هذه المطارات ودوام تحركات أسرابنا منها، أكثر أهمية لنا من حماية العاصمة التي منيت بحملات من القصف الجوي، غرضها الأول نشر الرعب وإثارة الفزع. وكانت هذه المرحلة فاصلة في الصراع بين الحياة والموت بالنسبة لكلا الفريقين المتنازعين، ولم نكن نفكر حينذاك بالدفاع عن لندن أو غيرها من المدن بقدر ما كنا نتساءل لمن سيكون النصر؟ وقد ساد قيادة الطائرات المحاربة في (ستاجور) إحساس بالقلق وخاصة في مقر قيادة المجموعة الحادية عشرة في أوكسبريدج، إذ منيت خمسة من مطارات المجموعة الأمامية وستة من مراكز الجبهة بأضرار جسيمة وكذلك محطة قطاع بجين هيل إلى الجنوب من لندن، حتى إن سربًا واحدًا هو الذي استطاع العمل وحده مدة أسبوع كامل، ولو استمر العدو في هجماته الثقيلة على الأماكن القريبة وهدم غرف العمليات فيها، وقطع اتصالاتها الهاتفية لأضحت جميع تنظيماتنا الدقيقة في القيادة الجوية معرضة لأشد الأخطار، ولم يكن دليلاً على مجرد توجيه الإساءة إلى لندن بل على وهن إشرافنا على سمائنا في هذا المكان الحيوي الحساس. وقد فرضت زيادة عدد من هذه المحطات في الثامن والعشرين من آب وخصوصًا مانستون وبجين هيل القريبة من منزلي، كانت المحطتان متداعيتين وطرقهما مملوءة بالحفر، وعندما غير العدو هجومه في السابع من أيلول إلى لندن، أدركت قيادة الطائرات المحاربة هذا التغيير واستشعرت قيادتنا الكثير من الراحة لذلك، وكان على غورنغ أن يستمر في هجماته على مطاراتنا التي تعتمد عليها قوتنا الجوية المحاربة في ذلك الوقت، لكن بتخليه عن قواعد

الحرب المألوفة ، وما تمليه الروح الإنسانية من قواعد مقررة ، ارتكب أجسم الأخطاء وأبشعها . وكانت هذه الفترة الواقعة ما بين ٢٤ آب و٦ أيلول من الأيام التي شقت على قيادة طائراتنا المقاتلة إلى أقصى حد ، وكانت القيادة قد منيت بخسارة ما يقرب من مائة وثلاثة من الطيارين خلال أسبوعين بالإضافة إلى مائة وثمانية وعشرين أصيبوا بجراح خطيرة ، كما تحطمت حوالي ٤٦٦ طائرة من طراز الهاريكين والسبيتفاير أو أصيبت بأضرار جسيمة ، وإذا اعتبرنا أن عدد الطيارين في قوتنا المحاربة كان في هذه الأونة ألف طيار ، بدا لنا أن سلاحنا الجوي قد فقد ربع رجاله تقريبًا .

ولم يكن في وسعنا ملء هذا الفراغ الذي نشأ عن فقدانهم ، إلا باستحضار مائتين وستين طيارًا جديدًا ينقصهم التدريب وإن لم تنقصهم الحماسة، نقلوا من وحدات التدريب قبل أن يستكملوا مدتهم الدراسية في كثير من الأحيان ، وتسببت الهجمات الليلية على لندن خلال عشرة أيام بعد السابع من أيلول والتي استهدفت الأرصفة ومراكز السكك الحديدية في قتل عدد كبير من المدنيين وإصابة الكثير بجراح ، لكنها برغم ذلك اعتبرت بمثابة نعمة هبطت علينا من السماء ، أرسلت إلينا على حين كنا في أشد الحاجة إليها لنأخذ أنفاسنا .

وعلينا أن نعتبر الحرب الجوية قد بلغت ذروتها في الخامس عشر من أيلول ، فقد شن سلاح الطيران الألماني - بعد غارتين متواليتين في ١٤ من الشهر نفسه - أكبر هجوم جوي مركز في رابعة النهار على مدينة لندن . لقد صارت إحدى المعارك الفاصلة في الحرب ، وقد حدثت في يوم من أيام الأحد كمعركة «واترلو» تمامًا ، وكنت في ذلك اليوم في تشيكرز ، وطالما قمت - قبل هذا اليوم - بزيارة لمقر المجموعة الحادية عشرة من الطائرات المقاتلة لأرى بنفسي سير إحدى المعارك الجوية التي لا يحدث فيها الكثير ، وأحسست في ذلك النهار أن الطقس مناسب لعدونا ، ولذلك فقد ركبت سيارتي إلى أوكسبردج حيث زرت مقر الجمعية التي تتكون من حوالي خمسة وعشرين سربًا تختص بالدفاع عن أيسكس وكنت وساكس وهامشاير وجميع المداخل المؤدية إلى لندن ، وكان نائب مارشال الجو بارك يقوم بقيادة هذه المجموعة منذ حوالي ستة أشهر ، وكان عليها يتوقف مصيرنا إلى درجة عظيمة ، ومنذ أن ابتدأت معركة دنكرك أسند إلى بارك إدارة كافة أعمال الطيران في النهار في جنوب

إنكلترا وقد بلغت استعداداته حد الكمال ، وتسللت مع زوجتي إلى غرفة العمليات الحربية المحصنة ضد القنابل والواقعة على بعد خمسين قدمًا تحت الأرض ، ومن المعلوم أن تفوق طائرات السبيتفاير والهاريكين إنما يرجع إلى وجود هذا الجهاز الدقيق من الأشراف ، وامتداد شبكة أسلاك التليفون تحت الأرض قبل الحرب بفضل توجيه وزارة الطيران ونصيحة المارشال داودنج . وكانت القيادة العامة توجه التعليمات والأوامر من مقر القيادة العليا للطائرات المحاربة في ستاجور ، لكن القيادة الفعلية لأسراب الطائرات قد عهد بها إلى المجموعة الحادية عشرة التي كانت تتولى الإشراف على سائر الوحدات الموزعة في شتى محطات الطائرات المحاربة في مختلف أنحاء البلاد . وكانت غرفة عمليات المجموعة تشبه المسرح الصغير ، وطولها يبلغ ستين قدمًا ، وتتكون من طابقين ، وقد اخترنا مقاعدنا في الحلقة الوسطي وأمامنا على المائدة أفردت الخريطة الضخمة وقد التف حولنا حوالي عشرين شابًا وفتاة تم تدريبهم ومعهم مساعدوهم من موظفي التليفونات وأمامنا يقع لوح أسود كبير بطول الجدار كله، وقد قسمته المصابيح الكهربائية إلى ستة أعمدة يمثل كل منها محطة من المحطات الست ، ولكل منها أيضًا عمود إضافي مقسم بخطوط أفقية . وهكذا كانت المصابيح المنخفضة تكشف عن الأسراب الواقفة على أهبة الاستعداد والمستعدة للطيران خلال دقيقتين ، ثم تعلوها المصابيح التي توضح الأسراب المتأهبة للعمل خلال خمس دقائق ، ثم تعلوها تلك التي يتم استعدادها في عشرين دقيقة، وهكذا بالنسبة إلى تلك التي تقوم بالطيران أو التي شاهدت العدو أو المشتبكة معه في هذه اللحظة أو تلك التي في طريقها إلى قاعدتها ، وهناك غرفة صغيرة على الجانب الأيسر تشبه المقصورة في المسرح يجلس فيها أربعة أو خمسة ضباط من فرقة المراقبة التي كان عددها قد بلغ حينذاك حوالي خمسين ألف رجل وامرأة وشاب ، وقد كان الرادار آنذاك في بدايته ، ومع ذلك فقد كان كافيًا لتوجيه الإنذار بالغارات حين تقترب من السواحل ، وكان المراقبون من خلال مناظيرهم وتليفوناتهم المتنقلة ، مصدر كل المعلومات عن الطائرات المغيرة ، وهكذا كانت القيادة تنهال عليها ألوف الرسائل والإشارات في أثناء وقوع الغارة . وكان يجلس عدد كبير من الرجال المدربين في غرف تمتلئ بهم في مقر القيادة الكائن تحت الأرض ، يحلون رموز تلك الرسائل

ويلخصونها بأقصى سرعة وينقلون من دقيقة إلى أخرى النتائج التي يصلون إليها إلى الذين يضعون ويخططون للمعركة وهم جالسون حول المائدة الرئيسية ، وإلى الضباط المشرفين على سير العملية من مقصورتهم التي أشرنا إليها .

وفي الناحية المقابلة (مقصورة) ثانية يحتلها عدد من ضباط الجيش الذين يقومون بنقل أعمال المدفعية المضادة للطائرات وقد كان لدينا منها تحت إشراف هذه القيادة مائتا مدفع ، وكان من الضروري جدًا أن تتوقف هذه المدفعية عن العمل لبضع ساعات أثناء الليل في بعض المناطق، إذ أن طائراتنا المقاتلة تكون في ذلك الوقت قد اشتبكت في القتال مع العدو ، وكنت على علم بهذا النظام ، فقد أطلعني داودنج على عمل الجهاز كله قبل أن تبدأ الحرب بعام عندما زرته في ستاغور، ولقد مر النظام بمراحل من التحسين والإصلاح منذ تلك الزيارة وصار الآن أداة حيوية من أدوات الحرب لا نظير لها في أي بلد من بلاد العالم . وقال لي بارك عندما نزلنا إلى المقر في الطابق الأسفل : «لا أستطيع التخمين عما يحدث اليوم ، كل شيء هادئ» .

ولم يكد يمضي ربع ساعة على هذا الكلام ، حتى كان منظمو الخطة قد بدأ تحركهم ، إذ أبلغوا أنه حوالي أربعين طائرة تحركت للإغارة من المحطات الألمانية في منطقة دييب ، وأخذت المصابيح تضيء في الصف الأدنى مشيرة إلى الأسراب التي وقفت على أهبة الاستعداد ، ثم وصل خبر آخر يقول أن عشرين طائرة مغيرة أخرى تستعد ، ولم تمض عشر دقائق أخرى حتى صار من البين أن معركة قاسية في طريق الوقوع وبدأ الجو يحتشد بطائرات من الجانبين . وتتابعت الإشارات ، أربعون طائرة ، ستون طائرة ، وكان اتجاه سير الطائرات المغيرة يبدو أمامنا على الخريطة من وقت إلى آخر في علامات توضح اتجاهاتها ، بينما كانت على اللوحة المواجهة تضيء المصابيح، مشيرة إلى طيران أسرابنا بصورة متتابعة حتى لم يبق منها على الأرض على أهبة الاستعداد أكثر من عدد قليل، وقد ظلت هذه المعارك الجوية التي يعلق عليها الكثير - أكثر من ساعة بعد وقوعها - وقد كان عدونا ما تزال لديه القوة التي مكنته من إرسال هذه الدفعات المتوالية من الطائرات إلى قلب الهجوم، وكان على أسرابنا التي تم طيرانها كلها لتكون لها السيادة على الجو أن تعود إلى قواعدها بعد سبعين أو

ثمانين دقيقة من طيرانها لتتزود بالوقود أو الذخائر ، ولو تمكن العدو في أثناء ذلك من حشد طائرات جديدة في حومة القتال لاستطاع تدمير العديد من طائراتنا وهي على الأرض ولذا فقد كان هدفنا الرئيسي دائمًا أن نوجه أسرابنا بحيث لا يتجمع عدد كبير منها على الأرض في وقت واحد .

وسرعان ما أوضحت الأضواء الحمراء أن معظم أسرابنا ملتحمة مع العدو ، وكنت أسمع همسًا متصلاً بين القائمين بالتخطيط ، وهو ينقلون الإشارات من مكان لآخر ليوضحوا تطور المعركة وتغير الأوضاع . وكان نائب مارشال الجو يصدر التعليمات العامة موجهًا طائرته المقاتلة التي تترجم فورًا إلى تعليمات تفصيلية يوجهها ضابط شاب يجلس في وسط الغرفة إلى كل محطة من المحطات .

وكنت أجلس بجواره ، وسألت عن اسمه بعد سنوات ، فقيل لي: إنه اللورد ويلوبي دي بروك. وقد التقيت به لثاني مرة في عام ١٩٤٧ عندما استجبت لدعوة من نادي الفرسان، وكان عضوًا في مجلس إدارته لمشاهدة حفلة سباق الدربي . وقد استغرب كثيرًا لأنني لم أنس لقائي الأول به. وكان في ذلك الحين يصدر التعليمات والأوامر للأسراب الفردية بالتحليق في الجو والقيام بأعمال دورية على هدى من النتائج الظاهرة على الخريطة .

وكان مارشال الجو آنذاك يسير في الغرفة جيئة وذهابًا وهو يلحظ بعين حذره متنبهة كل حركة وخطوة في اللعبة ، مراقبًا بنفسه رجال جهازه التنفيذي ومتدخلاً إذا اقتضى الأمر بكلمة حاسمة لتعزيز نقطة مهددة . ولم تمر لحظات حتى صارت جميع أسرابنا ملتحمة في المعركة ، ولم يبق سرب واحد في الاحتياطي ، وتحدث بارك في تلك الأثناء تلفونيًا إلى داودنج في ستاغور ، فطلب منه أن يضع ثلاثة أسراب من المجموعة الثانية عشرة تحت تصرفه احتياطًا للطوارئ ، وفيما إذا وقع هجوم رئيسي آخر ، خلال قيام أسرابه بالتزود بالسلاح والذخائر ، وقد تم فعلاً هذا ، وكانت الأسراب ألزم ما تكون لحماية لندن ومطارات الطائرات المحاربة حيث إن المجموعة الحادية عشرة كانت قد استنفذت كل قواها .

واستمر الضابط الشاب الذي اتخذ من هذه الأمور مسألة روتين في أعداد أوامره المنسقة مع تعليمات قائده العام، بلهجة هادئة، وسرعان ما انطلقت الأسراب الإضافية الثلاثة إلى ميدان المعركة مرة أخرى، وشعرت بقلق القائد الذي كان يصطنع الهدوء في وقفته وراء مقعد مساعده، وكنت حتى هذه الأثناء أشهد التطورات صامتًا، فسألته: «هل تملك قوات أخرى احتياطية؟» فأجابني نائب المارشال: «كلا ... لم يبق لدينا في الاحتياطي أي شيء». وقد كتب في تقريره فيما بعد أنني ظهرت حينذاك بمظهر المتجهم العبوس، وربما أكون حقًا قد قطبت جبيني، وعبس وجهي، إذ ماذا يكون الأمر لو فاجأت أربعون طائرة جديدة أو خمسون أسرابنا وهي على الأرض تتزود بالوقود لتعود إلى التحليق من جديد. إن الميزان حينذاك كان في كفة القدر، وكانت قدراتنا محدودة، والأخطار التي تتعرض لها جد كبيرة ... ومرت خمس دقائق أخرى، وأغلب طائراتنا المحاربة تعود إلى الأرض لتتزود بالوقود، ولم يكن في وسع مواردنا الحالية أن تضمن لها الحماية الجوية الكافية، وعرفنا أن طائرات العدو قد أخذت تعود من حيث أتت، وبدأت العلامات على الخريطة تظهر اتجاه الطائرات الألمانية نحو الشرق ولم يبد أثر لأي هجوم جديد، وبعد عشر دقائق من انتهاء المعركة بدأنا نرتقي السلم نحو سطح الأرض، وحينما وصلنا كانت صفارات الأمان تدوي في الأسماع منبئة بانتهاء الغارة.

وقال بارك: «أسعدنا يا سيدي، إنك رأيت المعركة، للحقيقة لقد كنا في الدقائق العشرين الأخيرة نكاد نختنق من المعلومات التي عجزنا أمامها، ولعلك يا سيدي شهدت القيود المفروضة على مواردنا الحالية، وقد تحملت الموارد اليوم أكثر مما نستطيع».

وسألته عما إذا كان شيء من نتائج المعركة قد وصل إليه، وذكرت أن الهجوم قد رد بصورة رائعة وفعالة، فأجاب بارك بأنه غير راض وأن طائراته لم تستطع أن تسقط العدد الذي كان يتوقعه، وكان من المستبعد أن يكون العدو قد اجتاح خطوطنا الدفاعية في كل مكان تقريبًا، وقد سرت الأنباء بأن عشرات من القذائف الألمانية قد استطاعت تحت حراسة المحاربات من التسلل إلى لندن، ولكن الصورة الصادقة عن النتائج لم تتضح تمامًا، كما لم تصل إلينا أية أرقام نهائية عن الخسائر أو الأضرار.

وكانت الساعة قد شارفت على الرابعة والنصف من بعد الظهر ، عندما رجعت إلى تشيكرز، فمضيت بعد ذلك إلى فيلولني ، ويبدو أن المسرحية التي عاينتها في مقر قيادة المجموعة الحادية عشرة قد أنهكت قواي حتى أنني لم أصح من نومي إلا في الثامنة مساء ، وحينما دققت الجرس حضر لي جون مارتن رئيس أمناء سري ومعه موجز أخبار المساء من جميع أنحاء العالم ... كانت أخباره تدعو إلى القلق ، فقد سار هذا الأمر سيرًا خاطئًا هنا ، وتأخر ذاك هناك ، والرد غير مقنع عن آخره ، أو أن الأطلنطي قد ابتلع قطعة من قطعنا البحرية ، ومضى جون مارتن يقول: «إننا قد حققنا في الجو ما نهدف إليه ، فقد أسقطنا مائة وثلاثًا وثمانين طائرة عدوة مقابل خسارتنا التي لم تبلغ الأربعين .

وبالرغم من أن المعلومات التي بلغتنا من العدو بعد الحرب تشير إلى أن خسائره في هذه المعركة لم تزد عن ست وخمسين طائرة ، إلا أن الخامس عشر من أيلول كان قمة معركة بريطانيا حقًا ، وبدأت قيادة طائراتنا القاذفة في تلك الليلة القيام بهجمات مركزة على كافة موانيء العدو من مولون إلى انتوبرب ، وقد أنزلت بالميناء الأخير خسائر بالغة ، وها نحن نعلم الآن أن الفوهرر قد قرر في السابع عشر من أيلول تأجيل عملية «أسد البحر» إلى أجل غير مسمى ، وتم أخيرًا في الثاني عشر من تشرين الأول تأجيل هذا الغزو نهائيًا إلى الربيع التالي .

وقرر هتلر في تموز عام ١٩٤١ تأجيل الغزو مرة أخرى حتى ربيع عام ١٩٤٢ عندما تكون الإغارة على روسيا قد انتهت ... وكان هذا الحلم ضروريًا مع كل ما فيه من عبث واستحالة. وفي الثالث عشر من شباط عام ١٩٤٢ اجتمع الأميرال رايدر بهتلر للمرة الأخيرة للبحث في عملية «أسد البحر» واضطره أن يقرر العدول عنها نهائيًا ، ومن ذلك يتضح أن الخامس عشر من أيلول عام ١٩٤٠ كان نقطة تطور هامة . ولاشك في أننا كنا متهاونين في تقدير خسائر العدو ، وفي الحقيقة كنا نسقط طائرتين أو ثلاثًا للعدو مقابل طائرة واحدة تهوى من طائراتنا ، وفي هذا ما يكفينا . وقد استطاعت قواتنا الجوية أن تحقق النصر ، بدلاً من أن يحيق بها الدمار على يد العدو. وكان هناك عدد من الطيارين الجدد لا ينقطع ، وبالرغم من الإصابات التي لحقت بمصانع طائراتنا ـ وهي العامل الفعال في قدرتنا على شن

حرب طويلة الأجل ، إلا مجرد إمدادنا بحاجاتنا العاجلة فحسب ، بالرغم من ذلك فلم تشل حركتها نهائيًا ، وبقي عمالها من فنيين وغير فنيين وراء مخارطهم تزدحم بهم المصانع غير مبالين بالنيران التي تتوهج من حولهم ، فكانوا أشبه ما يكونون بالمدافع التي تواصل عملها دون انقطاع . وكان هوبرت موريسون في وزارة التموين يشجع الجميع على مواصلة الجهد ، كل في حدود عمله ، وكان يحفزهم بكلمة : «هيا ، إلى العمل» فلا يمتنع أحد عن الإسراع بتلبية ندائه ، وقامت قيادة مقاومة الطائرات المغيرة برئاسة الجنرال بايل ، يبذل كل عون مستطاع إلى معركة الدفاع الجوي ، لكن اشتراكها الرئيسي كان متأخرًا ، أما فرقة المراقبة فكانت تواصل عملها ليل نهار لا تعرف التعب وبدون أن يتأثر إخلاصها . أما قيادة الطائرات المقاتلة التي تعتمد عليها المقاومة كل الاعتماد ، وقد أقنعتنا بقدرتها على الصمود المتواصل أشهرًا عديدة أمام الإجهاد المستمر ، حقًا لقد أدى كل فريق واجبه أحسن الأداء.

واستمرت أرواح طيارينا وشجاعتهم ، وهم يخوضون غمار المعركة في منتهى القوة والروعة ، وهكذا أنقذت بريطانيا ، وأصبح على أن أقف في مجلس العموم وأقول: «لم يسبق قط في تاريخ الصراع الإنساني أن أحسن مثل هذا العدد الضخم من الناس ما في أعناقهم من دين جسيم نحو عدد قليل من الناس مثلما نحس به جميعًا اليوم نحو طيارينا » .

* * *